قرطبة والـمذهب الـمالكي

إعداد: مولاي الحسين ألحيان عفا الله عنه
أستاذ بكلية الشريعة – أكادير.

عناصر المقالة :

تمهيد ، ويتكون من :

أ – مرحلة ما قبل المذهب المالكي .
ب– ظروف دخوله الأندلس

أولا : مكانة قرطبة في الأندلس
أ– الجانب الاجتماعي والسياسي
ب– الجانب العلمي

ثانيا : دور قرطبة في خدمة المذهب المالكي
أ– دور أهل قرطبة
ب– دور السلاطين
ج – دور الفقهاء

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على حبيبنا محمد وآله وصحبه

ظلت قرطبة أهم مركز ثقافي وفكري بالأندلس منذ الفتح الإسلامي إلى سنة أربعمائة للهجرة ، ثم أخذ إشعاعها العلمي يتقلص شيئا فشيئا إلى أن أفل نجمها مع بداية القرن الهجري السابع (1) . وكانت خلال تلك الفترة قيمة على الحياة الثقافية والفكرية بالمنطقة ، فيها تنضج المذاهب ومسائل العلم والآداب ، سواء منها ما كان نابتا هناك أو ما كان مستوردا من الشرق ، ومنها تنطلق هذه المذاهب والعلوم والآداب، بحملها شيوخ قرطبة ، أو الطلبة الواردون عليها لتعم إفريقية والمغرب.

إلا أن هذا الدور الذي قامت به قرطبة في إنضاج ونشر الفكر الإسلامي بصفة عامة لم يكن على وتيرة واحدة في جميع فروع ذلك الفكر، بل كان فيه بإزاء تلك الفروع تفاوت في الأهمية، واختلاف بالقوة والضعف.

وإذا كان من أهم فروع الفكر الإسلامي الجانب الفقهي، فإن ما قامت به قرطبة في خدمة هذا الجانب مهم للغاية، فقد ساهمت في إنتاج فكر فقهي ناضج مكين، استطاع أن يرسي قواعد المذهب المالكي بالأندلس، ونشره بالمغرب في نماء مستمر، وإثراء مطرد، فكانت قرطبة بذلك قلعة من قلاع المالكية بالأندلس.

وقبل الحديث عن إسهام قرطبة في خدمة المذهب المالكي، أود أن أشير ولو بإيجاز لمرحلة ما قبل المذهب المالكي، والظروف التي رافقت دخوله الأندلس، والعوامل التي ساعدت على انتشاره هناك.

أولا : مرحلة ما قبل المذهب المالكي.

أجمع الذين أرخوا لفترة افتتاح الأندلس، أن الأندلسيين كان رأيهم منذ فتحت على مذهب الإمام عبد الرحمن بن عمر الأوزاعي(2) ، وقد تأثروا في ذلك بالشاميين الذين كانوا في الجند الذي فتح الأندلس ، إذ كان الإمام الأوزاعي بيروتيا، وكان إماما كبيرا، وفقيها معدودا ، شاع مذهبه أول الأمر شيوعا كبيرا، وصار القضاء به على حد قول بعض المؤرخين، ثم انتقل بعد ذلك إلى الأندلس كما مر ، غير أن بعض الباحثين (3) المحدثين يرى أن دخوله إلى الأندلس كان على يد الأمويين الفارين من وجه العباسيين الذين نكلوا بهم أشد تنكيل .

وأيّا كـان الأمـر ، فـإن مـذهـب الإمـام الأوزاعي وجـد في الأندلس مـع الفـاتحين الأوائل، ولما جـاء عبـد الرحـمن الداخل ، ووجـد الأندلسـيين يدينون به ويحكمونـه ، تبناه واتخذه مذهبا رسميا للدولة ، واستمر العمل به إلى ظهور مذهب الإمام مالك في دولة هشـام بن عبد الرحمن (172-180 هـ) ثاني الولاة الأمويين بالأندلس (4) .

ثانيا : ظروف دخوله الأندلس

يشوب مسألة دخول مذهب مالك إلى الأندلس بعض الغموض، وقع فيه غير واحد من الباحثين الذين تناولوا هذا الموضوع، فالمستشرق الإسباني انخل جنتالت بالانثيا يقول في كتـابه (تاريخ الفكر الأندلسي)(5) : " لازالت مسـألة من أدخل المالكيـة إلى الأندلس غامضة ... ويقال إن هذا الأخير – زياد بن عبد الرحمن– كان أول من أدخل المالكية إلى الأندلس " أما ابن القوطية (6) ، فيقول : " إن أول من أدخل الموطأ إلى الأندلس هو الغازي ابن قيس"

ويبدو من كلام المستشرق الإسباني أنه خلط بين دخول موطا مـالك إلى الأندلس، ودخول مذهبه. ومن هنا جاءه الغموض في المسألة ، والذي لا شك فيـه أن دخول الموطأ ككتاب ، ليس هو دخول المذهب كتطبيق عملي لما في الكتاب، والحقيقة في هذه المسـألة (7) أن دخول الموطأ إلى الأندلس كان على يد الغازي بن قيس ، وكان هذا الأخير حاضرا عند الإمام مالك وهو يؤلفه ، فلما أتمّه أتى بنسخة منه إلى الأندلس ، فكان بذلك أول من أدخله إليها على صورته الأولى ، أي قبل أن يهذبه مؤلفه وينقحه . وقد تم هذا كله قبل رحلة زياد بن عبد الرحمن الأولى إلى مـالك ، حيث عاد الغازي بن قيس من المشرق إلى الأندلس في خلافة عبد الرحمن الداخل ، في حين فإن زيادا كان قد رحل إلى المشرق بعد مدة من عودة الغازي بن قيس منه، حيث أتى زياد بالموطأ إلى الأندلس بعد ما هذبه مـالك. ونقحـه ، وأعـاد النظر فيـه ، فكان زياد بذلك أول من أدخله إلى الأندلس مكمـلا متقنا* ، وقف حيـاته لأسمـاعه، وتفقيه الناس بمذهب صـاحبه ، فكانت له الأولوية بهذا الاعتبار ، وذلك في خلافـة الأمير هشام *(8) .

ثالثا : عوامل انتشاره هناك

سبق القول أن المذهب المالكي بدأ انتشـاره في أيام هشام بن عبد الرحمن، حيث تحولت البلاد الأندلسية من أوزاعية إلى مالكية، ويعود السبب في شيوع هذا المذهب هناك إلى عوامل كثيرة (9) نذكر منها :

1- رحلة طلاب العلم الأندلسـيين والمغـاربة إلى الحـجـاز غـالبـا ، وفي هذا يقـول العلامةابن خلدون : " أمـا مالك رحـمه الله ، فاختص بمذهبه أهل المغرب والأندلس، وإن

كان يوجد في غيرهم ، إلا أنهم لم يقلدوا غيره إلا في القليل، لما أن رحلتهم كانت غالبا إلى الحجاز وهو منتهى سفرهم ، والمدينة يومئذ دار العلم، ومنها خرج إلى العراق، وشيخهم يومئذ وإمامهم مالك... فرجع إليه أهل المغرب والأندلس ، وقلدوه دون غيره ممن لم تصل إليهم طريقته.(10)"

2- شخصية صاحب المذهب نفسه ، لما عرف عنه من تمسكه بالسنة ومحاربة البدعة وتشبثه التام بآثار الصحابة والتابعين ، واستجماعه أدوات الإمامة... وللأثر الوارد في شأن عالم المدينة ، الذي حمله بعض العلماء على الإمام مالك ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم :" يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل في طلب العلم، فلا يجدون عالما أعلم من عالم المدينة (11) :قال سفيان بن عيينة : نرى أن المراد بهذا الحديث مالك بن أنس (12).

3- إن جهود رجال عظام أمثال زياد بن عبد الرحمن ، ويحيى بن يحيى الليثي، وقرعوس بن العباس ، وعيسى بن دينار ساهمت بحظ كبير في ترسيخ مذهب مالك بالأندلس، وإشاعة فضائل صاحبه بين الناس ، والتنبيه على علو شأنه ، ونباهة قدره ، وسعة علمه ، فما وسع العامة والخاصة – والحالة هذه – إلا أن فتحت صدرها لاستقبال المذهب الجديد، فكان هؤلاء وأمثالهم بحق الجماعة التي وطدت المذهب ببلاد الأندلس (13).

4- موقف بعض السلاطين ، كان لشخصية الأمير هشام القوية ، وسيرته المحمودة، ما جعل الطلاب الأندلسيين أثناء رحلتهم إلى الحجاز يشيدون بذكره ، وينوهون بسيرته، إذ سأل الإمام مالك أحدهم عن سيرة أميرهم ، فأجابه : إنه يأكل الشعير ويلبس الصوف ويجاهد في سبيل الله فقال مالك : ليت الله زين حرمنا بمثله(14) ولما عادوا إلى بلادهم وحدثوا أميرهم عن شيخهم واصفين له فضله وسعة علمه وجلالة قدره . كما ذكروا له إعجابه بسياسته وسيرته ، ما لبث بعد ذلك أن حمل رعيته على الأخذ بمذهب مالك ، ونبذ كل مذهب ينافيه (15).

5- تشابه البيئة في كل من الحجاز وبلاد المغرب، أي بيئة نشأة المذهب وبيئة انتشاره، ولأن المذهب المالكي أقرب إلى مزاج المغاربة ، فهو يعتمد على الحديث والأثر وعلى إجماع أهل المدينة أكثر مما يعتمد على القياس والعقل ، وهذا المنهج أكثر ملاءمة وأوفق لعقلية الأندلسيين (16).

هذه بعض من الأسباب التي تضافرت مع غيرها فعملت على نشر مذهب مالك بأرض الأندلس، حيث إن حمل سلاطين المغرب رعاياهم على الالتزام به ، والهجرة التي كانت مستمرة بين المغرب والمدينة المنورة ، وقوة رجالات المذهب ، كل ذلك جعل المذهب يستقر ويتمكن ، فلا يبقى بعد تمكنه للمذهب الأوزاعي إلا أثر ضئيل كغرس الأشجار في صحون المساجد التي أباحها الأوزاعي وكرهها مالك وأصحابه.(17)

وبعد هذا التقديم الموجز، نخلص إلى الموضوع المتمثل في مظاهر خدمة قرطبة للمذهب المالكي ، ونبسط الكلام فيه في محورين ، نخصص أحدهما للحديث عن مكانة قرطبة الاجتماعية والسياسية والعلمية، والثاني لما قامت به خدمة للمذهب ، سواء من قبل أهلها، أو سلاطينها، أو فقهائها .

مكانة قرطبة في الأندلس

من منا لا تملأ نفسه مشاعر عديدة من الاعتزاز المقرون بالأسى، ويجيش صدره بهذه المشاعر المضطربة حين تشهد عيناه صورا من آثار المجد الدارس بمدينة قرطبة العريقة ، هذه المدينة التي ارتفعت إلى مصاف الحواضر العظمى في العصور الوسطى، واكتسبت شهرة لاتقل كثيرا عن شهرة بغداد ، حاضرة خلفاء بني العباس ، أو القسطنطينية العظمى ، مقر أباطرة بيزنطة ، وبهذا كان لها تأثير عميق في التاريخ السياسي والحضاري للإسلام في المشرق والمغرب .

الجانب الاجتماعي والسياسي

تقع مدينة قرطبة (18) على سهل مرتفع في سفح جبل قرطبة(19)المعروف بجبل العروس(20) ويحدها شمالا جبال سيراحورينا ، وجنوبا الضفة اليمنى من نهر الوادي الكبير(21) وهي مدينة قديمة البناء (أزلية من بنيان الأوائل (22) لا يعرف على وجه التحقيق المدى التاريخي لجذورها القديمة وأغلب الظن أنها إيبيرية الأصل(23) ، وهي من أكثر المناطق إنتاجا للغلل الزراعية في إسبانيا وهي بلا شك مدينة عظيمة ، طالما أسهب المؤرخون والجغرافيون في ذكر محاسنها ومعالمها ، والإشادة بفضائلها ومزاياها ، فهي واسطة بين الكور ، يجبى لها ثمرات كل جهة ، وخيرات كل ناحية ، طيبة الماء والهواء ، زاهرة مشرقة ، أحدقت بها البساتين والزيتون ، فحسن مرآها ، وطاب جناها ولجمال عمرانها ،وسعة مرافقها يقول ابن حوقل :"هي أعظم مدينة بالأندلس ، وليس بجميع المغرب لها عندي شبيه في كثرة أهل ، وسعة محل ، وفسحة أسواق ، ونظافة محال ، وعمارة مساجد وكثرة حمامات وفنادق ...(24) " ويقول المراكشي :" وبلغت قرطبة هذه من القوة وكثرة العمارة وازدحام الناس مبلغا لم تبلغه بلدة "(25) وقد اتصلت مباني قرطبة بالزهراء، والزاهرة حتى كادت تشكل معها مدينة واحدة ، بحيث إن الماشي كان يستضيء بسروج قرطبة الممتدة عشرة أميال لا ينقطع عنه الضوء(26) ومما يدل على تقدمها العمراني أن عدد أرباضها – على حد قول ابن بشكوال 27) واحد وعشرون ، في كل ربض من المساجد والقرى والحمامات والأسواق ما يقوم بأهله ولا يحتاجون إلى غيره .

وهذا الازدهار العمراني والحضاري (28) لقرطبة أهلها لأن تعتبر القلب النابض للأندلس آنذاك ، وكيف لا وهي قاعدة الأندلس ، وقطبها الأعظم ، وأم مدائنها ومساكنها ، ولذلك فلا عجب أن اتخذها سلاطين الأندلس قاعدة لملكهم ، ومقرا لخلافتهم ، وإنما اتخذوها لهذا الشأن لما رأوها لذلك أهلا ، وهي من الأندلس بمنزلة الرأس من الجسد (29).

وهكذا تألقت قرطبة في عهد الخلافة الأموية بالأندلس تألقا لم تشهده حاضرة إسلامية في العصور الوسطى ، باستثناء القاهرة وبغداد ، وأصبحت بحق مهد الحياة الرفيعة ، ومنار العلوم ، ومركز الفنون ، وشمس الحضارة ، وبلغت من العمران والتمصير في هذا العهد غايته ، وظلت كذلك إلى حين سقوط الخلافة الأموية بالأندلس، وظهور الفتنة بها(30) ففي النفح(31) :" ولم تزل قرطبة في الزيادة منذ الفتح الإسلامي إلى سنة أربعمائة، فانحطت ، واستولى عليها الخراب بكثرة الفتن إلى أن كانت الطامة الكبرى عليها بأخذ العدو الكافر لها في ثاني وعشرين شوال سنة ستمائة وثلاث وعشرين :"

الجانب العلمي

ازدهرت الحركة العلمية بقرطبة في العصر الأموي وما تلاه من العصور الإسلامية حتى سقوطها في أيدي القشتاليين ، وعرفت نشاطا لا مثيل له ، حتى غدت بحق قاعدة العلوم ، ومركز الآداب والفنون ، وأصبح اسمها يرتبط ارتباطا وثيقا بالعلم ، بل أصبح العلم من معالمها البارزة التي يتفاخر بها أبناء قرطبة (32) ويعبر الفقيه أبو محمد عبد الحق ابن غالب بن عطية عن ذلك بهذين البيتين(33):

بأربع فاقت الأمصار قرطبة * وهن قنطرة الوادي وجامعها
هاتان ثنتان ، والزهراء ثالثة * والعلم أكبر شيء وهو رابعها

ويدل لمكانة قرطبة في مجال العلوم ، مناظرة جرت - بين يدي المنصور الموحدي- بين الفقيه العالم أبي الوليد ابن رشد والرئيس أبي بكر بن زهر ، تتعلق بتفضيل قرطبة على إشبيلية ، فقال ابن رشد لابن زهر في كلامه :" ما أدري ما تقول، غير أنه إذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها ، وإذا مات مطرب بقرطبة فأريد بيع تركته حملت إلى إشبيلية "

والعلم صفة متأصلة في القرطبيين ، يتوارثونها كما يتوارث الملك ، فقرطبة أعظم علما ، وأكثر فضلا بالنظر إلى غيرها من الممالك ، لاتصال الحضارة العظيمة والدولة المتوارثة فيها ، وأهلها أصحاب رياسة ووقار ، لا تزال سمة العلم متوارثة فيهمَ(34).

وقد أشار الحجاري في المسهب إلى بعض جوانبها العلمية بقوله : كانت قرطبة منتهى

الغاية ، ومركز الراية ، وأم القرى وقرارة أولى الفضل والتقى ووطن أولى العلم والنهي ، وقلب الإقليم ، وينبوع متفجر العلوم ، وقبة الإسلام، وحضرة الأنام ، ودار صوب العقول، وبستان ثمر الخواطر ، وبحر درر القرائح ، ومن أفقها طلعت نجوم الأرض وأعلام العصر وفرسان النظم والنثر ، وبها أنشئت التأليفات الرائقة وصنفت التصنيفات الفائقة ، والسبب في تبريز القوم حديثا وقديما على من سواهم أن أفقهم القرطبي لم يشتمل قط إلا على البحث والطلب لأنواع العلم والأدب (35) ولم تبلغ قرطبة في ميدان العلم هذا الشأو البعيد إلا بعد أن اصطنعت في ذلك وسائل ناجحة، فقد اجتذبت إليها القلوب والأنظار من كل حدب وصوب ، وأمّها فحول العلماء والأدباء من شرق وغرب، فوجدوها مرتعا خصبا لنشاطهم العلمي ، حيث وفر لهم الأمن والاستقرار ، فأبدعوا وأنتجوا ، وزاد هذا الاتجاه قوة عودة الطلاب الراحلين إلى المشرق للتبحر في علومه ، والتزود من فنونه ، فكان ذلك من منعشات العلم بقرطبة . يضاف إلى هذا ما طبع عليه الأهل والأمراء من تنافس كبير في اقتناء الكتب وجمعها وتسبيلها للمطالعة ، كل هذا وغيره ساعد على تنشيط الحركة العلمية بقرطبة ، غير أن هذه الحركة لم تبلغ ذروتها إلا في عصر الخلافة الأموية ، حيث شملت سائر العلوم والفنون.

ففي ميدان الأدب ، نشطت حركة الشعر والنثر ، وبرز في الساحة شعراء وأدباء نابهون ، اصطبغ أدبهم بصبغة جمال الأندلس الساحر ، من مياه جارية ، وبساتين زاهية ، وجبال خضرة ، رقق من مشاعرهم ، وهذب من جفوتهم، وأثار ملكاتهم الفكرية الحية ، فأنتجوا في مختلف الأغراض والفنون .(36)

وفي مجال الاجتماعيات عرفت ازدهارا لا ينكر ، وانجبت عددا من المؤرخين والجغرافيين أمثال محمد بن موسى الرازي مؤلف كتاب (الرايات) وهو مؤلف جغرافي وتاريخي(37). والمؤرخ ابن حيان (38) الذي يعتبر أكبر مؤرخي الأندلس وشيخهم وإمامهم ، وقد جنح كثير من مؤرخي قرطبة إلى الكتابة في تراجم علماء الأندلس ، وأشهرهم أبو عبد الله محمد بن الحارث الخشني ، صاحب كتاب (تاريخ قضاة قرطبة) وهو أهم مصدر درس الحياة الاجتماعية في الأندلس من الفتح حتى عصر الحكم (39). وإلى جانب ما ذكر استقطبت قرطبة عددا كبيرا من العلماء في كافة العلوم العقلية ، وفتحت أبوابها للدارسين والباحثين في الطب والهندسة والرياضيات وعلم النجوم من جميع أنحاء الأندلس ، وظهرت فيها أهم مجموعة من الأطباء والصيادلة الذين كانوا يؤلفون مدرسة في علم الطب والعقاقير ، وكانت بحق مركز العلوم ، ومحط ترحال العلماء والدارسين .

العلوم الدينية

بدأت العلوم الدينية في الأندلس بوفود بعض الصحابة والتابعين إليها أثناء الفتح الأول من أمثال المنذر أو المنيذر على اختلاف فيه ، وهو صحابي (40). وممن دخلها من التابعين موسى بن نصير الفاتح ، وعلي بن رباح ، وحنش بن عبد الله الصنعاني ، وأوس بن ثابت الأنصاري (41)، وإلى هؤلاء وأمثالهم يرجع الفضل في بذر البذرة الأولى في العلوم الدينية بالأندلس ، فهم الرعيل الأول وطبقة المتقدمين ، وتبعهم في ذلك طبقة ثانية، أشهرهم ثلاثة رجال : عبد الملك بن حبيب ويحيى الليثي ، وعيسى بن دينار ، وفيهم قال ابن لبابة : فقيه الأندلس عيسى بن دينار ، وعالمها عبد الملك بن حبيب ، وراويها يحيى بن يحيى الليثي(42). وكان هؤلاء يعدون ناشري العلم بالأندلس ، حيث كونوا مدرسة رائدة فأخذوا يدرسون ويؤلفون ويترجمون . وجاء بعدهم طبقة أخرى قدمت العلم خطوة . جديدة ، ومن أشهرهم قاسم بن أصبغ الذي عاد إلى الأندلس بعلم كثير ، وكان عالما بصيرا بالحديث والرجال ، نبيلا في النحو والشعر والغريب ، وكان يشاور في الأحكام ، وساهم بهذه الطريقة في بث العلم ببلده (43). ومحمد بن وضاح وبقي بن مخلد ، شيخا قاسم ، فابن وضاح كان عالما بالحديث ، بصيرا بطرقه ، متكلما على علله ، سمع منه الناس كثيرا ، ونفع الله به أهل الأندلس ، وأما بقي فهو أيضا من علماء الحديث بقرطبة ، وهو الذي ملأ الأندلس حديثا ورواية(44)، و بفضل جهوده وجهود ابن وضاح صارت الأندلس – على حد قول ابن الفرضي (45)– دار حديث .

وهكذا ، فإن العلوم الدينية من أهم ما يلفت نظر القرطبيين ، إذ ما لبثت الأمور تهدأ وتستقر حتى بدأوا يفكرون في العلم ، وأول ما فكروا فيه الدين ، فوجهوا عنايتهم إلى القرآن والحديث ، وما يدور في فلكهما من علوم ، فظهر عثمان بن سعيد القرطبي الذي بلغ الغاية في القراءات(46)، وبقي بن مخلد في علوم التفسير الذي قالوا بأنه أكبر المفسرين للقرآن بالأندلس ، كما برز في الفقه المالكي وأصوله فقهاء مشهورون أمثال زياد،ويحيى، وابن مزين، وابن زرب، وآخرين (47).

ولم تقتصر الثقافة الدينية بقرطبة على الفقهاء ورجال العلم ، بل تغلغلت في صفوف العامة ، وشاعت في الأرباض والنواحي بين الرجال والنساء . ففي خارج قرطبة ثلاثة آلاف قرية ، في كل واحدة منبر وفقيه تكون الفتيا في الأحكام والشرائع له(48)، بل إن بالربض الشرقي من قرطبة وحده – كما يقول صاحب المعجب –(49) مائة وسبعين امرأة كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفي .

دور قرطبة في خدمة المذهب المالكي

تحتل قرطبة مكانة عالية بين سائر المدن الأندلسية ، وذلك لاعتبارات متعددة سبق أن ذكرنا بعضها فيما سلف ، وقد أهلتها هذه المكانة لأن يكون لها دور في شتى مجالات الحياة ، ويهمنا هنا ما قدمته من خدمات في حفظ المذهب المالكي ، والقيام به ، والدفاع عنه ، وإحلاله المقام اللائق به ، وتتجلى لنا مظاهر هذه الخدمة فيما يأتي :

أ- دور أهل قرطبة :

ما أن استتب الأمر للمذهب المالكي وذاع صيته بقرطبة أيام هشام بن عبد الرحمن حتى اعتنقه الناس ، وأقبلوا على تعاليمه ، والتزموه دون غيره من المذاهب، ولاعجب في ذلك ، فهو مذهب أصيل ، نما وترعرع في مهبط الوحي، ومهد النبوة ، ومصدر العلوم الإسلامية كلها ، المدينة المنورة ، وهي – كمامر – لها في نفوس المغاربة والأندلسيين مكانة خاصة ، ولذلك ما أن عاد به القرطبيون الوافدون على الإمام مالك نقيا صافيا لا تشويه شائبة حتى سرى في نفوس أهل قرطبة ، وتغلغل في أعماقهم ، وغدوا لا يرضون غيره بديلا ، وهم يقولون – على حد تعبير المقدسي(50). لا نعرف إلا كتاب الله وموطأ مالك ، فإن ظهروا على حنفي أو شافعي نفوه ، وإن عثروا على معتزلي أو شيعي ربما قتلوه.

فاختيار أهل قرطبة إذن لمذهب مالك ، هو اختيار مذهب أهل السنة ، وفقه الصحابة والتابعين (51).

وحبهم للمذهب ، وتقديرهم لصاحبه ، حفزهم إلى تقدير علماء المذهب وفقهائه ، فتراهم يسمعون فيمتثلون ، ويومرون فيطيعون ، فالفقيه عندهم معظم من الخاصة والعامة، يشار إليه ، ويحال عليه ، وينبه قدره وذكره بين الناس ، ويكرم في جوار أو ابتياع حاجة (52). وقد عبر المقري عن إجلالهم للفقه وأهله بقوله : "وللفقه عندهم رونق ووجاهة ، ولا مذهب لهم إلا مذهب مالك ، وخواصهم يحفظون من المدونة ...إلى أن قال : وسمة الفقيه عندهم جليلة ، حتى إن المسلمين كانوا يسمون الأمير العظيم منهم الذي يريدون تنويهه بالفقيه(53). وهذا الموقف منهم يدل على علوالهمة، وشرف النفس، ودماثة الأخلاق، وهو مقصد الشريف الإدريسي بقوله: "وفضائل أهل قرطبة أشهر من أن تذكر، ومناقبهم أظهر من أن تسطر، وإليهم الانتهاء في الثناء والبهاء، ذكروا بصحة المذهب وطيب المكسب..." (54).

وإلى جانب ما ذكر ، فقد كان للأندلسيين غرام بتسبيل الكتب على المطالعة ، ولهم خزائن كتب عامة وخاصة ، وكانت قرطبة أكثر بلاد الأندلس كتبا ، وأهلها أشد الناس

احتراما للكتب ، واعتناء بخزائنها حتى صار ذلك عندهم على حد قول محمد بن عبد الملك ابن سعيد - من آلات التعين والرياسة ، فلا يكاد يخلو بيت من خزانة فيها كتب قيمة ، حتى إن الرئيس منهم لاتكون له معرفة بالكتب فتراه يتنافس في اقتنائها ، ويتباهى بها حتى يقال : فلان عنده خزانة كتب ، والكتاب الفلاني ليس عند أحد غيره ، والكتاب الذي هو بخط فلان قد حصله وظفر به(55).

وفي نفح الطيب (56)مثل يدل على حب أهل قرطبة للكتب ، نسوقه هنا للفائدة . قال الحضرمي : أقمت مرة بقرطبة ، ولازمت سوق كتبها مدة أترقب فيه وقوع كتاب كان لي بطلبه اعتناء ، إلى أن وقع وهو بخط فصيح ، وتفسير مليح ، ففرحت به أشد الفرح ، فجعلت أزيد في ثمنه ، فيرجع إلى المنادي بالزيادة علي ، إلى أن بلغ فوق حده ، فقلت له : يا هذا، أرني من يزيد في هذا الكتاب حتى بلغه إلى ما لا يساوي ، قال : فأراني شخصا عليه لباس رياسة ، فدنوت منه ، وقلت له : أعز الله سيدنا الفقيه ! إن كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك ، فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حده ، قال : فقال لي : لست بفقيه ، ولا أدري ما فيه ، ولكني أقمت خزانة كتب ، واحتفلت فيها لأتجمل بها بين أعيان البلد ، وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب ، فلما رأيته حسن الخط ، جيد التجليد استحسنته ، ولم أبال بما أزيد فيه ، والحمد لله على ما أنعم به من الرزق فهو كثير . قال الحضرمي : فأحرجني.

ب - دور السلاطين :

ساهم أمراء الأندلس في توطيد المذهب المالكي ، وإلزام الناس بتعاليمه ، وتحبيبه إليهم ، فقد صرفوا همتهم منذ البداية إلى " مراعاة أحوال الشرع في كل الأمور ، وتعظيم الفقهاء ، والعمل بأقوالهم ، وإحضارهم مجالسهم واستشارتهم(57)" ولذلك ما لبثوا أن شجعوا الفقهاء والعلماء، وهيأوا لهم الأسباب لينتجوا ويبدعوا، وقربوهم إلى مجالسهم، واصطفوهم بالمشاورة والاستفتاء .

مع بداية حكم عبد الرحمن الداخل بدأت البلاد الأندلسية تعرف نهضة فكرية وعمرانية كاملة ، فقد كان هو نفسه من أهل العلم ، وله أدب وشعر(58)، كما كان ابنه هشام مبرزا في الفقه والحديث، ففي هذه الفترة استقر المذهب المالكي واستحكم ، وانبرى الفقهاء لخدمة أصوله وفروعه ، يحمسهم إلى ذلك ما كانوا يلاقونه من الأمراء ، الذين ما فتئوا يباركون جهودهم ، وينوهون بنشاطهم العلمي ، ويوفرون الأمن والاستقرار ، ويحيطونهم برعايتهم ، ويغمرونهم بعطاياهم ، ويصطنعونهم لخدمتهم ، ولا عجب أن يكون هذا الصنيع منهم ، فقد كانوا هم أنفسهم مستنيرين ، يقدرون العلم والمشتغلين به ، وكانوا على حظ كبير من الثقافة والعلم ولذلك نجدهم شغوفين ، صارفين عنايتهم إلى اقتنائها حيث كانوا يرسلون للبحث عنها الخبراء المتخصصين.

فالأمير عبد الرحمان الأوسط بعث إلى المشرق عباس بن ناصح ليأتي له بالكتب النفيسة(59). وكان عبد الرحمان هذا شاعرا أديبا ذا همة عالية (60)، يناقش العلماء، ويداخل كل ذي فن في فنه(61) ، ملما بعلوم الشريعة والفلسفة ، وكان يخلو بكبير الفقهاء في عصره يحيى بن يحيى الليثي ويشاوره (62).

وللأمير هشام بن عبد الرحمن كذلك مواقف جليلة مع الفقهاء ، إذ كان يقربهم ويؤثرهم في مجالسه ، ففي المدارك (63). أن الأمير هشاما كان يؤثر الفقيه زياد بن عبد الرحمن . ويخلو به ، ويسائله عما يعرض له من أمور دينه، فيأخذ برأيه ، وقد حضر عنده يوما غضب فيه هشام على خاصة له ، أوصل إليه كتابا كره وصوله ، فأمر بقطع يده، فقال له زياد : أصلح الله الأمير ، فإن مالك بن أنس حدثني في خبر رفعه ، أن من كظم غيظا يقدر على إنفاذه ملأه الله أمنا وإيمانا يوم القيامة . فسكن غضب الأمير ، وأمر أن يمسك عن يد الخادم ، وعفا عنه .

وربما رأى الأمراء الأمويون بالأندلس أن يزيدوا ارتباط فقهاء المالكية بهم عن طريق إظهار أنفسهم حماة للمذهب المالكي ، إذ صار في هذه الفترة مذهبا رسميا للدولة بشكل واضح جلي . وبدت مظاهر ذلك في اعتباره رمزا للولاء للخليفة، فقد كان أحد شروط الحكم المستنصر لقبول ولاء الأمراء المغاربة "السير مع السنة والجماعة وفق أحكام المذهب المالكي"(64).

وفي كتابه إلى الفقيه أبي إبراهيم يعبر عن ذلك بقوله :"وكل من زا غ عن مذهب مالك، فإنه ممن رين على قلبه وزين له سوء عمله ، وقد نظرنا طويلا في أخبار الفقهاء ، وقرأنا ما صنف من أخبارهم إلى يومنا هذا ، فلم نر مذهبا من المذاهب غيره أسلم منه ، فإن فيهم الجهمية والرافضة والخوارج والمرجئة والشيعة ، إلا مذهب مالك ، فإنا ما سمعنا أن أحدا ممن تقلد مذهبه قال بشيء من هذه البدع ، فالاستمساك به نجاة إن شاء الله تعالى." (65).

ولا غرابة في هذا ، فقد كان الحكم ممن طالع الكتب ، وبحث عن أحوال الرجال، ونقر عن أخبارهم تنقيرا لم يبلغ فيه شأوه كثير من أهل العلم، وكان عالما نبيلا ، أقام للعلم والعلماء سوقا نافعة ، وأجتمع عنده من خزائن الكتب مالم يجمعه أحد من الملوك قبله (66) انتدب نفسه للعناية بالعلوم إذ كان يبعث رجالا من التجار في شراء الكتب إلى الأقطار (67). وجلبوا له من ديار المشرق والمغرب عيون التآليف والمصنفات النادرة في العلوم القديمة والحديثة حتى ضاقت عنها خزائنه (68).

ويذكر ابن بشكوال في الصلة أنه قلما يوجد كتاب من خزائنه إلا وله فيه قراءة أو نظر أو تعليق مهما كان موضوع الكتاب (69). وتهيأ له كل ذلك لفرط محبته في العلم، وبعد

همته في اكتساب الفضائل ، وسمو نفسه إلى التشبه بأهل الحكمة من الملوك ، فكثر تحرك الناس في زمانه إلى قراءة كتب الأوائل ، وتعلم مذاهبهم حتى بلغت مكتبته الآلاف (70).

وهكذا شجع الأمراء الأمويون الدراسات المالكية ، فقد كلف الحكم المستنصر اثنين من كبار الفقهاء الأندلسيين – أبي بكر المعطي (71) وأبي عمر بن المكوي (72). بإتمام كتاب (الاستيعاب الكبير) الذي يجمع أقوال مالك باختلاف الرواية عنه، وذكر من رواها وأباح لهما خزانة كتبه على ضنانته بها ، فألفاه على مائة جزء ، بلغا فيه الغاية ، فلما رفعاه إليه ، سر به وأجازهما على ذلك جائزة سنية ، وقدمهما (73) للشورى.

وكان للعلماء والمؤرخين والشعراء والأدباء مجامع علمية وأدبية أشبه بالمجامع أو الأكاديميات في هذا العصر ، وذلك لنشر العلم والمعرفة ومفاوضة الحكمة بينهم . وقد أنشأ الحكم مجمعا وقلده غيره من أمراء الأندلس فأنشأوا مجامع لهم (74). وكان للمنصور بن أبي عامر في دولة هشام المؤيد مجلس معروف في الأسبوع يجتمع فيه أهل العلم للكلام فيها بحضرته ، فنتج عن تلك الاجتماعات فوائد مهمة للعلم والمدنية(75). ...

ومما يؤكد إسهام الأمراء الأمويين في توطيد المذهب وترسيخه – أنهم كانوا يشترطون فيمن تسند إليه ولاية القضاء أن يكون مستظهرا للمدونة ، كما كانوا يشترطون في سجلاتهم أن لا يخرج القاضي عن قول ابن القاسم ماوجده(76) احتياطا ورغبة في صحة الطريق الموصل لمذهب مالك . كما أن أمراء قرطبة كانوا يثبتون ذلك في مراسيم وظهائر الولاية(77).

وكانوا لا يسمحون للفقيه بلبس القلنسوة والتصدي للفتوى إلا إذا حفظ الموطأ ،وقيل: إذا حفظ عشرة آلاف حديث عن النبي صلى الله وسلم عليه وحفظ المدونة (78).

وكان متأخروا الشيوخ إذا انتقلت لهم مسأله من غير المدونة وهي في المدونة موافقة لما في غيرها عدوه خطأ (79) وقد حكي صاحب نيل الابتهاج (80) أن القاضي ابن عبد الرفيع ، قاضي الجماعة بتونس رفض أن يعترف بفقه الصفاقسيين : برهان الدين وشقيقه شمس الدين ، وكان أحدهما حافظا لفروع المالكية : والآخر متقنا لأصول الفقه واللسانية، فاتفق أن حضرا في مجلس ابن عبد الرفيع ، فسألهما عن مسألة فأجابا عنها بنقل ذكراه عن البيان لابن رشد ، وتكلما عليها بكلام استحسنه الحاضرون ، فلما خرجا من المجلس سئل القاضي ابن عبد الرفيع عنهما فقال : ليسا بفقيهين ، فسئل لم ذلك ؟ فقال : ما أجابا به وإن كان صحيحا إلا أنهما اعتمدا في النقل على غير المدونة في فرع مذكور فيها ، ومرتكب هذا لا يعد عند المالكية فقيها لأن المدونة أجل كتب المذهب من إملاء ابن القاسم أجل تلامذة مالك .

وهكذا يتضح أن سلاطين قرطبة غمروا الفقهاء والعلماء بالرعاية والعناية والتشجيع، مما خلق جوا من المنافسة بينهم ، فتسابقوا إلى ميدان التأليف والدراسة والاجتهاد فكان أن خدموا المذهب خدمة كبيرة ، نلمس بعض جوانبها في النقطة الآتية :

ج – دور الفقهاء :

ندبت نخبة من الفقهاء نفسها للرحلة إلى المشرق رغبة في الإغتراف من علومه، فاتصلت بإمام دار الهجرة ، أو تلاميذه المباشرين ، فأخذت المذهب المالكي ، ورجعت إلى الأندلس تصف للناس فضل مالك ، وسعة علمه وجلالة قدره فانتشر يومئذ مذهبه وعلمه بالأندلس ، ويعود الفضل في ذلك إلى جماعة من الفقهاء نقتبس من حياتهم العلمية ما يمس موضوعنا بإيجاز ، ولعل من تصدر القائمة :

1- أبو عبد الله زياد بن عبد الرحمن المعروف بشبطون (81) (ت 193هـ)، قرطبي، فقيه الأندلس على مذهب مالك ، تردد على الإمام مالك مرتين ، ولزم جامع قرطبة ، وتصدر لإقراء مذهب الإمام ، ونشر علمه ومبادئه بين الناس ، فأخذ العلم منه خلق كثير .

سمع من الإمام مالك الموطأ ، وهو أول من أدخل الأندلس علم السنن، ومسائل الحلال والحرام ووجوه الفقه والأحكام ، وأول من أتى إليها بالموطأ مكملا متقنا .

وله عن الإمام مالك في الفتاوى كتاب معروف بسماع زياد .

ونظرا لمكانة زياد العلمية ، وتقديره لدى العامة والخاصة ، أراده الأمير هشام على القضاء بقرطبة ، فأبى عليه ، وخرج هاربا بنفسه ، فقال هشام : ليت الناس كلهم مثل زياد ، حتى أكفى أهل الرغبة في الدنيا ، ثم أمنه ، فرجع إلى قرطبة .

2- أبو محمد الغازي بن قيس الأموي (ت 195هـ) (82)، من أهل قرطبة ، الفقيه المحدث الثقة الأمين ، رحل قديما ، فسمع من مالك الموطأ ، وشهده وهو يؤلفه ، وقيل : إنه كان يحفظه ظاهرا ، وعاد إلى الأندلس بعلم عظيم ، وهو أول من أدخل إليها الموطأ ، وقراءة نافع .

3- عيسى بن دينار الغافقي (83)(–ت212هـ)، رحل فسمع من ابن القاسم ، وصحبه وتفقه به ، وعول عليه ، وانصرف إلى الأندلس ، وكانت الفتيا تدور عليه ، لايتقدمه في وقته أحد بقرطبة .

كان إماما في الفقه على مذهب مالك ، تفرغ لتدريسه بالأندلس، فانتشر به وبيحيى علم مالك هناك ، ورجعت الفتيا بها إلى رأيه .

وكان فقيها بارعا ، ومؤلفا مكثرا ، له سماع من ابن القاسم ، عشرون كتابا ، وله

تآليف في الفقه يسمى كتاب (الهداية) ، يقول فيه ابن حزم : إنه أرفع كتب جمعت على مذهب مالك وأجمعها للمعاني الفقهية على المذهب .

وقد عدوه أفقه من يحيى على جلالة قدر يحيى وعظمته ، وكان هو وابن حبيب ويحيى أفراس رهان ، كل له ميزته ، إليهم يرجع الفضل في بث مسائل مالك ، وعلمه بين الأندلسيين .

4- أبو محمد يحيى بن يحيى الليثي(84) (ت 234هـ)، قرأ بقرطبة ، وسمع من زياد موطأ مالك ، ثم رحل فسمع من مالك الموطأ ، غير أبواب في كتاب الاعتكاف ، بقي يحدث بها عن زياد . وكان الإمام مالك رحمه الله يسميه عاقل الأندلس .

ولما انفصل يحيى عن مالك ووصل إلى مصر رأى ابن القاسم يدون سماعه من مالك، فنشط للرجوع إلى مالك ليسمعها منه ، فرحل إليه ثانية ، فوجده عليلا، فأقام بالمدينة إلى أن مات ، وحضر جنازته ، وقدم الأندلس بعلم غزير ، فعادت فتيا الأندلس بعد عيسى بن دينار إلى رأيه وقوله .انتهت إليه الرئاسة بالفقه في الأندلس وبه وبعيسى بن دينار انتشر مذهب مالك ، وانتهى الناس إلى سماع الموطأ منه ، وروى عنه خلق كثير ، فقد كان رجلا وقورا ، مشهورا بالأمانة والدين ، إماما معظما مكينا عند الأمراء ، لايقطعون أمرا إلا بعد مشورته ، وخاصة ما يتعلق بشؤون القضاء والإفتاء . عرض عليه القضاء فترفع عن ولايته، مما زاد في جلالته وعلو شأنه عند السلطان ، فأسند إليه منصب اختيار القضاة ، فكان لا يختار إلا من كان على مذهب مالك .

قال ابن لبابة : فقيه الأندلس عيسى ، وعالمها ابن حبيب ، (أو راويها) يحيى بن يحيى ومن إنتاجه في المذهب (85).

أ- روايته الموطأ ، وهي أهم آثاره وأجدرها بالتقديم لما حازته من شهرة في أقطار الإسلام

ب- ما رواه يحيى عن مالك خارج الموطأ من أحاديث تبلغ في مجموعها نحو ألف حديث

ج- ما رواه يحيى عن مالك بواسطة ابن القاسم ، مما يعرف بسماع ابن القاسم

د- وصية مالك لطلبة العلم.

5- عبد الملك بن حبيب السلمي (86) (ت 238هـ) عالم الأندلس، الإمام في الفقه واللغة والحديث . تفقه بالأندلس وسمع من الغازي وزياد ، ثم رحل فلقي أصحاب مالك وغيرهم، وعاد إلى الأندلس وقد جمع علما عظيما ، فنقله الأمير عبد الرحمن بن الحكم إلى قرطبة، ورتبه في طبقة المفتين بها، فأقام مع يحيى زعيمها في المشاورة والمناظرة.

9- أبو محمد قاسم بن أصبغ البياني القرطبي (97) (ت340هـ) سمع ببلده، ورحل فسمع بمكة والعراق ومصر والقيروان ، وانصرف إلى بلده بعلم كثير ، وسكن قرطبة ، وكان له بها قدر عظيم ، وسمع منه الناس ومالوا إليه .

وكان بصيرا بالحديث والرجال، مشاورا في الأحكام ، من أئمة المالكية ، صنف في الحديث كتبا حسنة، منها كتاب (المصنف) المخرج على كتاب أبي داود. واختصاره (المسمى (المجتبى). ومنها (غرائب حديث مالك) و(مسند حديث مالك) من رواية يحيى .

ولم يقتصر الإنتاج في المذهب على هؤلاء فحسب ، بل نجد فقهاء قرطبيين آخرين شاركوا في إثراء المذهب دراسة وترجمة وتخريجا وتأليفا ، ومن هؤلاء :

– أبو عبد الله محمد بن عمر بن لبابة (98)(ت331هـ)، الإمام الفقيه المشاور ، كان مقدما في فقه مالك وله فيه كتاب سما (المنتخب) قال فيه أبو محمد بن حزم وما رأيت لمالكي كتابا أنبل منه في جمع روايات المذهب ، وتأليفها ، وشرح مستغلقها ، وتفريع وجوهها.

– أبو محمد عبد الله بن محمد بن أبي دليم (98)(ت351هـ)، الفقيه المشاور، ألف كتاب (الطبقات فيمن روى عن مالك وأتباعهم من أهل الأمصار) .

– أبو بكر محمد بن يبقى بن زرب (99)(ت381هـ)، قاضي الجماعة بقرطبة ، الفقيه الحافظ الحاذق ، من أحفظ أهل زمانه لمسائل مذهب مالك – وأفقههم به ، ألف كتاب (الخصال) المشهور في الفقه على مذهب مالك . جاء غاية في الإتقان .

– أبو عبد الله محمد بن أبي زمنين (100)(ت399هـ) ، الفقيه الحافظ ، كان من أرفع أهل وقته قدرا ... في العلم والرواية ، له تآليف مفيدة في المذهب ، منها كتاب (المغرب في اختصار المدونة وشرح مشكلها ، والتفقه في نكت منها). قالوا : ليس في مختصراتها مثله باتفاق . وكتاب (المهذب في اختصار شرح ابن مزين للموطأ) وكتاب (المنتخب في الأحكام)،

– أبو عبد الله محمد بن عمر بن بشكوال القرطبي(101)(ت419هـ) ، الذي كان يحفظ المدونة والنوادر ويوردها من صدره . اختصر نوادر ابن أبي زيد ، رد عليه في مسائل وله أيضا رد على رسالة ابن أبي زيد ، ووثائق ابن العطار .

– أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري القرطبي (102)(ت463هـ) ، حافظ المغرب ، وعميد فقه الإمام مالك بالأندلس ، أصل كثيرا من فروع المذهب في كتبه النفيسة ، أمثال كتاب (التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد) ، وكتاب (الاستذكار بمذاهب علماء الأمصار فيما تضمنه الموطأ من معاني الرأي والآثار) ، وكتاب التقصي لحديث الموطأ) وكتاب الكافي في فقه أهل المدينة المالكي).

– أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي (103)(ت 520هـ)، زعيم الفقهاء بالأندلس والمغرب، وحافظ المذهب، المعروف بصحة النظر، ودقة الفقه ، وجودة التأليف ألّف كتاب (البيان والتحصيل لما في المستخرجة من التوجيه والتعليل) من كتب المالكية الجليلة القدر ، المعتمدة عند كل من جاء بعده ، وكتاب المقدمات الممهدات واختصار الكتب المبسوطة .

– وحفيده أبو الوليد بن رشد (ت595هـ)، قاضي الجماعة بقرطبة ،وصاحب (بداية المجتهد).

– أبو عبد الله محمد بن حارث الخشني القرطبي (104)(ت361هـ)، ألف كتاب (الاتفاق والاختلاف) في مذهب مالك ، وكتاب (رأي مالك الذي خالفه فيه أصحابه).

– أبو عمر يوسف بن يحيى الأزدي (105)(ت283هـ) صاحب كتاب (فضائل مالك).

هؤلاء وغيرهم كثير من الذين ساهموا في إغناء المذهب المالكي بقرطبة ، غير أن من الملاحظ في إنتاجهم أنه يتجه إلى الفقه أكثر من اتجاهه إلى الحديث ، ولعل السبب في ذلك يعود إلى عاملين رئيسيين :

أ– توجيه الإمام مالك لتلاميذه والوافدين عليه إلى التفقه في الحديث، والإقلال من روايته ، من ذلك قوله لابني أخته وتلميذيه – عبد الحميد وإسماعيل بن أبي أويس – : أراكما تحبان هذا الشأن (يعني الحديث) فأقلا منه وتفقها فيه .

ب– إن اتجاه الدراسة في الأندلس إلى الفقه أكثر من اتجاهها إلى الحديث يرجع بطبيعة الحال في هذه الفترة إلى حاجة البلاد الماسة إلى فقهاء يفضلون في المسائل المختلفة وفق ما هو مشهور في مذهب مالك ، فاقتصرت الدراسة على الموطأ ، وأقوال مالك خارج الموطأ ، ثم مسائل ابن القاسم ، ثم فتاوى غيره من تلامذة الإمام.

والذي يظهر من تراجم هؤلاء الفقهاء أنهم كانوا يمثلون طبقة تمارس وظيفة حراسة الشريعة ، والمراقبين لسير الإدارة والمعاملات بموجب مقتضياتها ، وكانت هناك وظائف مقصورة عليهم مثل الفقهاء المشاورين في قرطبة ، الذين يسألون في الإفتاء بقضايا من قبل الأمراء والخلفاء أو القضاة، ومنهم القضاة ، وصلاحياتهم آنذاك واسعة جدا (106).

ونظرا لذلك كان الفقهاء أصحاب الكلمة المسموعة لدى العامة ، كما كانوا الفئة التي يسعى الأمراء والخلفاء لكسب رضاهم ، لأنهم زعماء من ناحية ، ولأن الخليفة بحاجة لفتاويهم وشهاداتهم على كل عقد هام ، وقد ساق صاحب المدارك(107) مثالا يبين دور الفقهاء أيام الخلافة الأموية بالأندلس، ولا بأس من إثباته :

إن الأمير عبد الرحمن الناصر احتاج إلى شراء أرض - كانت حبسا توضع فيها الأزبال - قبالة منزله بقرطبة ، يجعلها منتزها ، فراود الفقهاء في أن يعوضها بأحسن منها بكثير ثمنا وغلة ، فلما أيس منهم بعث إليهم أحد وزرائه ، فخاطبهم وأغلظ لهم في القول: فانبرى له أحدهم قائلا : بئس المبلغ أنت ... فنحن أعلام الهدى ، وسرج الظلمة ، بنا يتحصن الإسلام ، ويفرق بين الحلال والحرام ، وتنفذ الأحكام ، وبنا تقام الفرائض ، وتثبت الحقوق ، وتحصن الدماء ، وتستحل الفروج ... فلو كنا عند أمير المؤمنين على الحالة التي وصفتها عنه - ونعوذ بالله من ذلك - لبطل عليه كل ما صنعه وعقده وحله من أول خلافته إلى هذا الوقت ، فما ثبت له كتاب حرب ولا سلم ، ولا بيع ولا شراء ، ولا صدقة ولا حبس ، ولا هبة ، ولاعتق ، ولا غير ذلك إلا بشهادتنا(108)...

وقد ظلت خدمة المذهب المالكي مستمرة أيام الخلافة الأموية ، شأنها في ذلك شأن ازدهار الحضارة والعلم رغم ماكان يعترض سبيلها من حوادث متعاقبة ، تختلف في النظام والفوضى، فتستقر عند وجود الحاكم الحازم ، وتضطرب عند عدمه ، حتى إن الباحث ليستغرب ازدهار الفقه والعلم في وسط الاضطراب ، ولعل ذلك- كما يقرر أحد الباحثين (109)- يعود لأمرين :

أ- أن بعض الأمراء الحازمين حكموا مدة طويلة كخمسين سنة أو نحو ذلك ، استقامت فيها الأمور ، وازدهرت الحضارة والعلم ، مثل عبد الرحمن الداخل ، والخليفة الناصر ، والمنصور بن أبي عامر ...

ب- يظهر أن العلماء أو بعضهم كانوا يكونون لأنفسهم جوا هادئا يسود فيه العلم ويبتعدون ما أمكن عن السياسة.

الهوامش

1- نفح الطيب ج 2 ص 7
2- تاريخ افتتاح الأندلس ص 65 جذوة المقتبس ج 1 ص 339 شجرة النور ص 450 ظهر الإسلام 29/3 الأندلس والمالكية " للأستاذ عبد الكريم بنجلون (مجلة رسالة المغرب. ع 5-8-9 سنة 1942). ترتيب المدارك 26/1.
3- الأستاذ عبد الكريم بنجلون في مقاله السابق وفي المعجب للمراكشي ص 26 ما يفيد دخول بعض التابعين إلى الأندلس .
4- انظر : تاريخ افتتاح الأندلس ص 65 * شجرة النور ص 450.
5- ص 417 وما بعدها
6- تاريخ افتتاح الأندلس ص 65
7- انظر يحيى بن يحيى الليثي وروايته الموطأ (رسالة جامعية) ص 8-9
8- ترتيب المدارك ج 3 ص 114-117 نفح الطيب ج 2 ص 252 شجرة النور ص 63
9- انظرها مفصلة في: محاضرات في تاريخ المذهب المالكي ص 29-38؛ويحيى بن يحيى الليثي وروايته الموطأ ص 5-8.
10- مقدمة ابن خلدون ص 154وما بعدها .
11- الحديث أخرجه الإمام أحمد في المسند 299/2. والترمذي في الجامع (مع العارضة) 152-153/10 والتمهيد 85/1.
12- ترتيب المدارك ج1 ص 70 وما بعدها.
13- نفح الطيب 256/2
14- الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى 1/139.
15- ترتيب المدارك 27/1، المعيار المعرب 356/6.
16- ظهر الإسلام 29/3.
17- يحيى بن يحيى الليثي وروايته الموطأ ص 7
18- قرطبة ، بضم أوله وسكون ثانيه وضم الطاء المهملة ، والباء الموحدة ، اسم ينحو إلى لفظ اليونانيين ومعناه ، أجر ساكنها ، وهي مدينة عظيمة وسط بلاد الأندلس ، معجم البلدان 324/4 نفح الطيب 7/2-8
19- نفح الطيب ج 2 ص 12
20- وصف المغرب والأندلس من كتاب (نزهة المشتاق) للإدريسي ص 13
21- قرطبة حاضرة الخلافة بالأندلس للأستاذ عبد العزيز سالم ص 14
22- نفح الطيب 9/2.
23- قرطبة حاضرة الخلافة بالأندلس ص 16-17.
24- نفح الطيب 9/2

25- المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص 520.
26- المعجب ص 520 والنفح 6/2
27- النفح 14/2
28- انظر نماذج منه في نفح الطيب ج 2 ص 5 وما بعدها ، قرطبة حاضرة الخلافة بالأندلس
29- انظر النفح 10/2.
30- انظر المعجب ص 520
31- ج 2 ص 7
32- انظر : قرطبة حاضرة الخلافة بالأندلس ج 2 ص 155 وما بعدها
33- نفح الطيب ج 2 ص 147
34- المصدر السابق ج 2 ص 5 وص 11.
35- نفسه ج 2 ص 10.
36- قرطبة حاضرة الخلافة بالأندلس 167/2 وما بعدها . وفي النفح ج 2 ابتداء من ص 16 نماذج شعرية تؤيد ما ذكرنا .
37- النفح 108/4
38- قرطبة حاضرة الخلافة بالأندلس 204/2.
39- تاريخ الفكر الأندلسي ص 270.
40- ظهر الإسلام 48/3 وفي النفح 9/2 ويقال : نزلها بعض من الصحابة، وفيه كلام
41- المعجب ص 26 ظهر الإسلام 48/3
42- تاريخ علماء الأندلس ق 2 ص 180.
43- وله مصنفات في الحديث مثل كتابه (المصنف) واختصاره(المجتبى) . انظر : الفكر السامي 109/2.
44- تاريخ علماء الأندلس ق 1 ص 92.
45- نفسه ق 2 ص 16.
46- تاريخ الفكر الأندلسي ص 400.
47- تاريخ علماء الأندلس ق 2ص 181.
48- نفح الطيب 8/2.
49- ص 520 من المصدر السابق.
50- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ج 3 ص 13.
51- محاضرات في تاريخ المذهب المالكي ص 32.
52- نفح الطيب 206/1.
53- نفسه، المصدر السابق.
54- ظهر الإسلام 15/3.

55- نفح الطيب 11/2- شجرة النور ص 126-.

56- ج 2 ص 12.

57- نفح الطيب 30-.

58- المعجب ص 30.

59- نفح الطيب 45/1.

60- البيان المغرب 135/2.

61- نفح الطيب 45/1.

62- المصدر نفسه

63- ج 3 ص 119.

64- المقتبس لابن حيان ص 175 نقلا عن تاريخ الأندلس في القرن الرابع الهجري ص 106.

65- المدارك 22/1 – المعيار 357/6.

66- نفح الطيب 361/1-362 شجرة النور ص 126.

67- النفح 361/1-362.

68- النفح 11/1.

69- شجرة النور ص 127 المعيار 357/6.

70- ظهر الإسلام 24/3.

71- محمد بن عبيد الله المعيطي، كان حافظا للفقه ، عالما بمذهب مالك وأصحابه ترجمته في تاريخ علماء الأندلس ج 2 ص 78 والديباج 2 ص 225 والفكر السامي113/2- والمدارك 119/7.

72- أحمد بن عبد الملك ترجمته في جذوة المقتبس ص 123- والصلة ص 28 والمدارك 123/2 .

73- المدارك 121/7-122 الفكر السامي 113/2.

74- الشجرة ص 127.

75- المرجع السابق.

76- قال الباجي : كان في سجلات قرطبة : ولا يخرج عن قول ابن القاسم ما وجده. المعيار– 24/12 مواهب الجليل ج 8 ص 98.

77- محاضرات في تاريخ المذهب المالكي ص 180.

78- نفح الطيب 8/12.

79- المعيار 23/12-24.

80- ص 42-43 (مطبوع بهامش الديباج)

81- انظر ترجمته في : تاريخ علماء الأندلس ق 1 ص 154 المدارك 118/3-122. شجرة النور ص 36.

82- انظر ترجمة في : جذوة المقتبس ج 2- ص 515 المدارك 114/3 شجرة النورص 63.

83- انظر ترجمته في جذوة المقتبس 472/2 شجرةالنورص 64 المدارك 379/3-394. الفكر السامي 94/2.

84- انظر ترجمته في تاريخ علماء الأندلس ق 2 ص 180المدارك 379/3-394.
نفح الطيب 221/2 الفكر الإسلامي97/2.
85- يحيى بن يحيى الليثي وروايته الموطأ ص 64.
86- انظر ترجمته في : جذوة المقتبس 447/2 تاريخ علماء الأندلس ق 1 ص 270 شجرة النور ص 74 الفكر السامي 97/2.
87- المدارك 124/4
88- المدارك 127/4 تاريخ علماء الأندلس ق 1 ص 270.
89- ترجمته في تاريخ علماء الأندلس ق 2 ص 6 جدوة المقتبس 47/1. المدارك 254/4-252 الفكر السامي 100/2.
90- جدوة المقتبس 47/1
91- المدارك 254/4.
92- المرجع نفسه
93- تاريخ علماء الأندلس ق 2 ص 6.
94- ترجمته في : جدوة المقتبس 595/2 المدارك 238/4 شجرة النور 75-
95- ترجمة في : المدارك 160/5 شجرة النور ص 77.
96- ترجمته في: تاريخ علماء الأندلس ق 1 ص 406– المدارك 180/5. الفكر السامي 109/2.
97- ترجمة في : جدوة المقتبس 159/1 المدارك 152/5 تاريخ علماء الأندلس ق 2 ص35.
98- ترجمة في : المدارك 150/6 الشجرة ص 90.
99- ترجمة في : تاريخ علماء الأندلس ق 2 ص 94-96 المدارك 114/7-117 جذوة المقتبس 162/1.
100- ترجمة في : جذوة المقتبس 100/1 المدارك 183/7، 186 الشجرة ص 101 الفكر السامي 119/2.
101- الفكر السامي203/2.
102- الفكر السامي 213/2-214.
103- قضاة الأندلس ص 98 الفكر السامي 219/2
104- الفكر السامي 112/2
105- جذوة المقتبس 593/2 الشجرة ص 76
106- المرقبة العليا ج ص 80.
107- المدارك ج ص 87-90.
108- انظر قصة منذر بن سعيد مع الخليفة الناصر لما أراد شراء دار بقرطبة في النفح ج 2 ص 227.
109- أحمد أمين في ظهر الإسلام ج 3 ص 73.